كيف نستعمل الحرية (*)

أيها السادة الاحرار

وقفت غير مرة مثل هذا الموقف بعد اعلان الحرية ، وكنت في مواقفي الأول أرسل القول إرسالا ، لأن المواضيع متوفرة ، والشعور بالمثال اطلق اللسان من عقاله ، وفك الافكار من أصفادها ، بعد أن لبثت مدة ترسف فيها ، حتى كدنا نيأس من انحلالها ، مع علمنا بأن لكل بداية نهاية .

ولكنني الآن اتلو عليكم خطبتي تلاوة ، لأنني سئلت ان اتكلم في موضوع لا اتعداه ، ومرتجل الكلام لا يستطيع حصره في موضوع واحد ، لأن الخطب الارتجالية حرة ، مثلكم ايها السادة في تأبي التقييد ، وقد جعلت موضوع خطابي هذا « كيف نستعمل الحرية » لأننا احوج الى هذا الموضوع الآن من سائر المواضيع

خاض الخطباء في تعريف الحرية وحدودها ، حتى كادوا يضعون لها قيودا ، ويخرجونها عما وجدت له ، ولو كانت ذات شعور لعجبت كيف يحاول تقييدها طلابها

وكاد قوم بهذه النواحي يشوهون وجهها الجميل ، ويشوشون مفهومها المستبين ، فظنوا ان الحرية تبيح للناس امتهان حكامهم ، والتعدي على صالحهم وطالحهم

سادتي : ان من يدفع عن مركزه بقوة ، انما يرجع اليه مثل القوة التي دفع بها ، فإذا كانت المظالم زحزحتنا بقوتها الوحشية عن مكاننا ، فنحن لا نرتكز في نقطة الا اذا دفعنا تلك المظالم في صدرها ، واخذنا بالأئمة على القائمين بها

الشعب الذي يغلو الحكام في ظلمه ، يجب ان يتطرف في الحرية متى نالها

الحاكم المسترسل بالظلم ، الملوث بالرشوة ، لا يفيقه من سكرة الاستبداد الا التقريع الفظيع ، والتنديد الشديد ، فهو كالعضو المخدر ، لا يحس الا بالوخز المؤلم وربما لا يحس ؟

(*) خطبة من الخطب التي القاها في احدى احتفالات الحرية ببيروت السيد حسين وصفي رضا شقيق صاحب هذه المجلة (المنار)

كل هذا ايها الأخوان لازم بل واجب ، ولكن لا يسوغ ان نجعله ديناً لنا حتى كأنه هو المقصود بكلمة الحرية ، إذاً نكون صرفنا الحرية عن معناها، ولم نعرف كيف نستعملها ، وحاشا ثم حاشا ، وكلا ثم كلا

أيها الشعب السوري العظيم ، يا سلالة الفينيقيين الذين ادهشوا العالم ، الذين لم تهب سفنهم هجمات امواج المحيط الاعظم، الذين ملأ ذكرهم بطون التواريخ ، انني أحييك واهش لك ، احييك باسم الحرية ، واناديك بملء فمي : انت أسمى من أن تضع الحرية في غير موضعها ، وانت احق بها واهلها ، بل إنها وجدت لتكون لك قبل كل البشر

الحرية هي تمتع الشخص بما لا يضير به سواه ، وصيانة الافراد من عبث الحاكمين، وسهولة سلوك السُبُل التي من شأنها إعلاء شأن الأمة ، وتبسط ابنائها في الحضارة والعمران ، وعدم استكانتهم للظلم والهوان

ابيح لنا القول ايها الاخوان ، فاسترسلنا في القول ، والقول مقدمة العمل فيجب ان نعمل أيضا

وضح لنا نهج المعين الذي ارتوى منه الافرنج قبلنا ، فلا يحسن بنا ان نرتشف منه ارتشافا، بل يجب ان نبتلعه ابتلاعا اذا قدرنا

أتيح لنا ان نعمل ما نشاء ، فلا يليق بنا ان نعمل ما من شأنه إضعاف قوانا وإنهاك جسومنا ، بل يجب ان نعمل على ما يرفع شأننا ، ويجعلنا في مصاف الأمم الحية الراقية ، وبذلك نحسن استعمال الحرية

الجمعيات هي اساس النجاح ، ودعائم الرقي ، فيجب ان نؤسس جمعيات ، لا يسوغ ان تكون جمعياتنا لطائفة من الناس ، لا يجوز ان تكون اسلامية أو مسيحية أو يهودية مهما كانت وجهتها ، وأنى كان قصدها ، بل يجب أن تكون عثمانية بحتة، انتم عثمانيون ايها الاخوان ، فيجب ان تكون جمعياتكم عثمانية ، الجامعة التي تنضمون تحت لوائها هي العثمانية ، فاجعلوها جمعياتكم كذلك تحسنوا استعمال الحرية

عاشرت اثنين ايها الناس منذ بضع سنين اسمها مشترك بين المسلمين والنصارى وانا الآن لا اعرف ان كانا مسلمين او نصرانيين ويجب ان تكونوا انتم كذلك

ايضا ، يجب أن تعارفوا بمثانيتكم لا بمذهبكم ونحلتكم ، أليس كذلك ؟ بَلَى بَلَى

المدارس الوطنية هي كل ماتحتاجه الآن ، لتنهض من كبوتنا ، ونُقال من عثرتنا ، وليس عندنا الآن مدارس وطنية بالمعنى الذي أريده ، أريد بالوطنية التي تضم الفرق والنحل ، وتنشئ طلابها تنشئة واحدة ، غايتها اعلاء شأن الوطن ، ووقاية الحرية بالمهج والأرواح ، والمدارس هي نبت الجمعيات وبنتها فمتى انشئت الجمعيات فقد أسست المدارس ، فانشئوا الجمعيات انشئوا الجمعيات تحسنوا استعمال الحرية

الجرائد هي القوة الكبرى والمدرسة التهذيبية ، وهي ميزان اعمال الامة ، وعنوان حالها ، وهي المسيطر الرقيب على الحكومة بل ان رقابتها تتناول كل شيء ، وهي قائد الامة الى مواطن السعادة والهناء ، والصادفة بها عن مواطن البوار والشقاء ، فيجب ان ان تكثر الجرائد بيننا ويعم انتشارها وبذلك نحسن استعمال الحرية

الخطابة هي مدرسة الشعوب الثانية بعد الجرائد ، ولها من العوامل فى التأثير الكبير ، ومن البواعث على العمل المفيد ، مايرفع ويعلي ، وينتاش الأمم من الحضيض الاسفل ، وينيف بها على يفاع المجد والسؤدد ، واذا كانت الجرائد للقراء فقط فان الخطب يتناولها سمع القارئ والأمي ، ويستفيد منها العامل والجاهل ، والنشيط والخامل ، والصانع ، والزارع ، بل هي لكل احد ، والخطابة الحرة وكانت ولا تزال من الدعائم التي يشاد عليها بناء التمدن الباهر ، ويرتفع بها صرح المجد الحقيقي ، فالمنابر المنابر ! ! ! لا تهملوا شأنها ، ارفعوا اعوادها ، ليرن صوت خطبائها ، ليهتفوا فلتدم الحرية ، فبذلك نحسن استعمال الحرية

التآلف بين الفرق والنحل هو الضامن الوحيد لبقاء وحدتنا ، واجتماع قوانا ، والمحافظة على حريتنا ، وبه ترد عادية المظالم ، وتدفع غائلة الظالم ، وهو الذي يجعل مجموع أفراد الأمة كالجسد الواحد ، اذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى ، أو كالبنيان المرصوص يشد بعضه بعضاً ، كما ورد في الحديث الشريف ، فيجب ان تتآلف ، يجب ان نتآلف ، لنحسن استعمال الحرية ، فليدم التآلف

ان استعمال الحرية يكون بالسير على النهج الذي أشرعته لكم أيها السادة ،

وثمة شؤون أخر ، يضيق مثل هذا الموقف عن استيعابها ، ولنا من حزم رجالنا خير كفيل للسير على النهج السوي ، والطريق المعبّد ، والأمل معقود على ان يبنوها بالعمل لا بالقول

بقيت لي كلمة أراني ملجأ الى الجهر بها ، قبل نزولي عن هذا المنبر ، تلك الكلمة هي إعلان استيائي واستياء العقلاء ، ممن يذهبون إلى أن الحرية منحة أو هبة من شخص معلوم ، ان هذا القول لا يليق صدوره من الأحرار ، إنه كذب وخيانة ونفاق ، وليست هذه الخصال من الحرية في شيء ، ان الحرية هي حق الشعب يسلبه منه بعض الظالمين سلباً ، فنيلُ الشعب له انما هو استرداد لحقه المغتصب منه ، وليس من الهبات والمنح ، الحرية ليست ملكاً للحاكم ولا للسلطان فكيف يهب الانسان ما ليس يملك له

هذا واني أشكر لجيشنا الباسل سعيه الكبير ، وعمله العظيم ، الذي خالف به كل جيوش العالم ، منذ وجد الجيش وأسست الجندية ، فان الجيوش في كل الأدوار والأجيال ، كانت يد الظالم القوية ، يستعين بها على قتل روح الحرية ، ولا أذهب بالاستشهاد بكم بعيدا أيها السادة بل ألفت انظاركم الى فظائع جيش العجم ، ومنكرات جيش روسيا ، وكيف يمثلون بطلاب الحرية أقبح تمثيل عملاً بإرادة المستبدين ، وتنفيذاً لمقاصد الظالمين ، فليمت المستبدون ، وليسحق الظالمون

واشكر أيضا لرجال جمعية الاتحاد والترقي العثماني ، ولكل رجال الاصلاح الذين وقفوا حياتهم ، وخاطروا بأرواحهم ، في سبيل استرجاع الحرية ، وأصرح بأن جمعيتهم قامت بما لم تقم به جمعية في العالم منذ أسست الجمعيات ، فانها كانت سببا في إحياء شعب بأسره ، لأن الشعب المستعبد هو والميت شرع ، هذا مع اعترافي بما للجمعيات من الأثر المحمود في خدمة النوع الانساني

واسأل الله أن يوفقنا للسير على ما يعلي شأن أمتنا ، ويرفع مقام دولتنا ، ويحفظ علينا نعمة الحرية ما دامت السموات والأرض ، اه

(المنار) جاءنا من بيروت ان الجمع الحافل قد صفق للخطيب تصفيقاً شديداً ، وهتف بالدعاء له وللمنار هتافا كثيرا ،

الفصل الحادى عشر (*)

(الحب الشريف)

إن أشرف السير سير أهل الفضيلة وما الفضيلة الا من خصائص النفوس فمن كان من عشاق الفضائل حسن به أن لا تقتر نظرات بصيرته الى النفس فهي مستقر الخوارق ، ومستودع العجائب

النفس مجلى الآيات الكبر ، ومهبط الفيوضات العلى ، والمرآة العظمى التي ينكشف بها الازل والأبد ، والمطبعة العظمى التي ترتسم بها الاشياء وتتكثر الصور ،

هي السلك الممدود بين مبدع الطبائع ، ومقيم الشرائع ، وبين الجواهر المتألقة الصامتة ، والظواهر المسخرة المطيعة ، فهي خليفة عليها واقفة على خطواتها ، مشرفة على حركاتها ، وهي مجذوبة من طرف اليها بجاذبية الانس والعادة ، ومجذوبة من طرف آخر الى مصدر بوارقها بجاذبية الحب والشوق ، فبانجذاب النفس الى الظواهر تأخذ الظواهر حظها من الانكشاف ، وبانجذاب النفس الى مانح الظهور تأخذ النفس حظها من الشهود والاشراف فيحق لها في الحالتين أن تمجد بما منحها به فاطرها تباركت عظمته ، وتعالى شأنه ،

أعظم خصائص النفس الحب والبغض بل ان هاتين الطبيعتين المتضادتين أعظم نواميس الاكوان الموجودات كلها لكن اختلفت

(*) من سيرة السيدة خديجة

الهبات ، وتباينت الاشواق ، وأوتيت النفس الانسانية أعظم نصيب من هاتين الطبيعتين لاتساع المحيط الذي تدور فيه، ولاتصالها بعالم الحس وعالم الغيب، وترددها بالانجذاب بينهما فهي ان وقفت يوماً مع الظواهر أنست بها فشغفها ما رش عليها مبدعها من الحسن الذي هو وصفه ، وان ارتفعت الى المبدع دهشت فولهت فدلهت لما هنالك من المجالي الازلية التي تطير السرائر شوقاً الى التمتع بها

الفضائل والرذائل ، الخيرات والشرور ، الحزن والسرور ، الرغبة والرهبة ، الاقدام والاحجام ، الكسل والنشاط ، الارتفاع والهبوط ، كل ذلك من مبتدعات الحب والبغض وآثارهما . وكل درجة من هذه الاشياء فاعاهي على مقاييسهما ، هما بالاختصار ركنا السعادة والشقاء فمن هدي الى تصريفهما والجري بهما على سنة مثلى فقد أهديت اليه السعادة وأوتي بالحب الشريف والبغض الشريف حظاً من الخير عظيما

***

كانت السيدة « خديجة » ذات قلب طاهر والقلب الطاهر مركز الحب الشريف فلذا أحبت سيدتنا هذه وكان قلبها تواقاً الى معالي الامور، عظيم الشغف بمحاسن الاخلاق ، وقد أمد الله فطرتها امداداً عظيما فقويت معرفتها بالمكارم ، وعظم علمها بأن الفضائل هي التي تليق بالانسان سواء وقفت نفسه مع هذه المحسوسات أم أرادت أن تندرج في زمرة عشاق المجالي الازلية

عرفت هذه السيدة صلة النفس الانسانية بمن منه انشقت أسرارها

واشتمت أنوارها، فكان لها تشوف الى جود عظيم يفيض عليها من العناية الربانية ، كما هو شأن ذوي السرائر الصافية، وحصل لها من هذه الحالة الطيبة قوة فراسة والفراسة نور فكانت تهتدي بها فيما هي حائمة الروح عليه من الفضائل، ومن أحب شيئاً أحب أهله من أجله، فلما عرفت ابن عبد الله ووجدت فيه ما يعشق من المزايا العلية، انتثرت حبة من تلك المحبة الشريفة التي كانت بها تنشد المكارم فوقعت في محل من قلبها لتنبت شوقاً الى هذا الرجل الصالح الذي ألفت المكارم كلها لديه، وأيقنت ان معرفتها هذا السعيد بمزاياه العظيمة هو أعظم الآثار التي كانت تتشوف اليها من لدن العناية المرجوة .

الآن وجدت محبة الفضائل والمحامد أعظم من تجلي الفضائل والمحامد فيه فكيف ينفر منه قلبها؛ بل كيف لا يميل اليه فؤادها ؟ فالامانة هو ذلك الشهير فيها وقد سبرته في متجرها فربحت بواسطته أضعافاً ، والشجاعة هو المنشأ فيها على يد عظيم الهمة أبي طالب، والنباهة هو الذي تسطع في محياه طوالعها ، والحكمة هو الذي تقرأ في سيماه آياتها، والعفة هو ربها ، والمروءة هو نجم شواردها، ومحاسن الخلقة هو النسخة الصحيحة منها، فأي الفضل تنشد بعد هذا محبة الفضل ، وأي المحامد تريد بعد هذه مريدة المحامد ؟ كمال خَلق وكمال خُلق ، جمال شخص وجمال نفس ، حنكة لم يظفر بمثلها أقرانه من الشبان ، ووقار لم يحظ بأقله الكبار، وهمة لا تقف أمامها الصعاب، وعزيمة لا تني أمام الثقال ، قوي شديد، حليم رشيد، كما يقول فيه عمه أبو طالب وهو به جدير :

فمن مثله في الناس أي مؤمل   اذا قاسه الحكام عند التفاضل ؟

حليم رشيد عادل غير طائش يوالي إلهاً عنه ليس بغافل
لقد علموا ان ابننا لا مكذب لدينا ولا يعنى بقول الاباطل
فأصبح فينا أحمد في أرومة تقصر عنه سورة المتطاول

فما أكثر غبطة السيدة «خديجة» اذ عرفت هذا السيد الجليل، وما كان أجدرها بأن يتعلق قلبها الطاهر به، وما أقوى نور فراستها اذ علمت انه لا نظير له، وان سعادتها لا تتم الا به، وما أحصها ان تغتنم الفرصة وتسبق الى تزوج هذا الشريف الذي جمع الى شرف النسب شرف الخلال

الفصل الثاني عشر

تاؤل هنا وثمة

كانت الكهانة شائعة في ذلك الزمان كما هو شأنها في كل الازمنة الى زماننا هذا وكان علماء التوراة ينبئون دائماً بظهور نبي منتظر وبعضهم كان يقول انه سيظهر من العرب . والراهب بحيرا تفرس بابن أخي أبي طالب اذ كان معه صغيراً وقال له: سيكون لابن أخيك هذا شأن : ولم يكن بعيداً عن المألوف أن يخبر بعض الناس بالمغيبات ولكن لم يكونوا يصدقون كل شيء من هذا القبيل ولا يكذبون كل شيء كما هو الشأن في أهل زماننا أيضاً

وقد كثر التكهن قبيل ظهور النبي (ص) ولكن أكثر الناس لم يكونوا يبالون بتلك الاخبار لانهم تعودوا أن يروا شيئاً من كذب الكهانة مع مصادفة صدقها أحياناً فلم تكن الثقة بها في الحقيقة تامة ولا سيما في الامور العظيمة

وبينما نساء من قريش مجتمعات في عيد لهن في الجاهلية اذ تمثل لهن رجل فلما قرب نادى باعلا صوته: يانساء أهل مكة سيكون في بلدكن نبي يقال له أحمد فمن استطاع منكن أن تكون زوجا له فتفعل، فكذبنه ورمينه بالحصى وكانت فيهن «خديجة» فلم ترمه كما رمينه

لم يكن هذا النبي، كاهنا معروفا فلذلك احتقره النساء لانهن لا يعبأن في الغالب الا باهل الشهرة . ولكن كان قومهن يعتقدون بالهاتف وهو على اعتقادهم روح ينطق بالشيء من حيث لا يرى أو يتمثل بصورة بشرية فيقول قولا من هذا القبيل ثم يغيب فكأن السيدة «خديجة» اعتقدت ان هذا المنادي هاتف فلم ترمه كما رماه ترائبها ولعلها صدقت اذ ذاك وتفاءلت خيراً ورجت أن تكون صاحبة هذ الحظ

وان صح ظننا هذا بالسيدة كان لنا دليل جديد على عظيم تطلعها الى بركات الجناب القدسي فان الرغبة في تزوج المنعم عليهم بالنبوة لا تعظم الا من العارفة بفضل الجناب الاعلى الذي يتفضل بخلعة النبوة على من يشاء

كانت النبوة معروفة عند قومها بما سمعوه من أخبار أنبياء جيرانهم بني اسرائيل ومعروف ان النبي رجل كالرجال ولكن يصطفيه الله ويرفع درجة نفسه على درجات سائر نفوس البشر حتى يطلعه على مالم يطلع عليه أحدا من أسرار عالم الغيب ، وليست النبوة ملكا أو حظوظا زائدة من نعيم الدنيا بل جل الانبياء الذين سلفوا كانوا مقلين ولم يكن حظهم الا مقاومة الناس اياهم وتعذيبهم . والنساء انما يرغبن بالنعيم والرفاهية ورغد العيش وكثرة الحلل والحلي وكل هذا لا يرجى لدى الانبياء الذين تصرف

أنظارهم عن متاع الغرور ويلتفتون الى مافيه غبطة الروح فلا تتصور السعادة من النساء عند الانبياء الا اللاتي أنعم الله عليهن بسلامة الفطرة وقوة الاستعداد كالسيدة «خديجة»

ولما رجع عبدها «ميسرة» من الشام في تلك السفرة التي ذهب بها مع الهاشمي «محمد» أخبرها بأحوال غريبة رآها منه لا يكون أمثالها الا لمن سمعت أخبارهم من الصالحين المباركين فما لبث أن رن في قلبها صدى ذلك الصوت الذي سمعته بأذنها، صوت ذلك المنادي في النساء المجتمعات اللاتي كانت معهن في العيد. وكان هذا الصدى الذي رن في قلبها تتألف منه هذه الكلمات:

«تفاءل هذا وقته»

الفصل الثالث عشر

الخواطر في قلب «خديجة»

كانت «خديجة» تعرف أن ليست النبوة بالكسب والاجتهاد وانما هي محض عطاء واختصاص من الحي الازلي الدائم ولكن كانت تعيد على خواطرها ماحكاه لها عبدها «ميسرة» ويرن على أثره ذلك الصدى في قلبها فتقول في نفسها أي مانع يمنع رجائي بفضل الله بأن أكون صاحبة الحظ من الرجل المبارك الذي أنبأ به الهاتف؟ أي مانع يمنع فضل الله عن قومي اذا أراد أن يخرج منهم ذلك الانسان الذي يقول عنه علماء التوراة وكان لها ابن عم من جملة علماء هذا الكتاب

ثم اذا مرّ بقلبها خاطر آخر يقطع عليها هذه الآمال وينهاها عن هذه الاحلام - التي كانت تراها في اليقظة - ترجع الى الشيء المحقق الذي لا ينازع فيه خاطر ولا يماري فيه حجي وهو ما تحلى به ابن عبد الله من صفات الكمال، فتمثل في فكرها تلك الطلعة السنية ويلمع أمامها برق من تلك العينين الدعجاوين، وتنسى الشمس وسائر الدراري حين تذكر دائرة ذلك الوجه المتألق، ويقوى ايمانها بالملائكة اذ ترى في هذا الشخص البشري آيات القدس والطهارة، فتقول في نفسها أفليس حسبي أن أكون ربة النصيب من فتى قريش الوحيد الذي كلمه الله ان لم أكن صاحبة الحظ من الصالح الذي أنبأ به الهاتف

ثم تتراجع اليها الخواطر ويقلبها ذلك الحب الشريف الذي نمت حبته في قلبها على ضروب من الحيرة فتقول في نفسها مرة أخرى: من لي بهذا الكمل الذي مال اليه قلبي، وحامت حوله خواطري، وعكفت في دائرة محاسنه نفسي، أليست تمنع العادات بأن أكون أنا الخاطبة؟ أف للعادات ما أثقل أحكامها، وما أظلم قضاءها، وما أشد عتمة مسالكها، وما أسوأ عواقب الجمود عليها، وما أبخس صفقة الذين لا يتزحزحون عنها،

ثم ثم أف للعادات فكم أوقفت بعض الاجيال في سجون ضيقة مظلمة من التقليد الضارّ، وحجبت عنهم أنوار التبصر والتدبر والتفكر، فانطمست عليهم سبل الارتقاء في معارج الاستحسان والتحسين، وعميت عليهم مطالع السعادة الحقيقية للنفوس

أف ثم أف للعادات فهي قاطعة الطريق على نتائج العقول تزج بها في مهاوي العدم، أو تذرها في سجن أقفر ممنوعاً عنها كل ما يحييها، ويا عجبا

لبني آدم الذين يضعون العادة في هذا المكان من الحكم على نفوسهم والقضاء على عقولهم وقلوبهم أليس لهم ما يذكرهم بأن العادة من صنعة أيديهم وتصوير أحلامهم أليس لهم ما يبصرهم بأن العادة يجب ان تكون تابعة لا متبوعة ، ومنقادة لا قائدة ، حتى اذا فتحت أمام بصائرهم أبواب أخرلما هو خير ودعوا عاداتهم تلك محمودة على قدر ما نفعت ، ومذمومة على مبلغ ما ضرت ، واستقبلوا أخرى مصاحبيها على مقدار ما يدوم من أسبابها ، وينفع من أبوابها

تبرمت « خديجة » بالعادة كثيراً ، وتأففت من تقلبها طويلاً ، وسردت كل سيئات الجمود عليها في قصتها التي هي أعلى من نفوس الغافلين عن المقدمات والنتائج ، لما خصها الله من سلامة الفطرة ، وفضل الفطنة ، وقوة آلة المعرفة ، ومزيد حرارة الهمة .

ثم عادت تعذر الضعفاء الذين لا يستطيعون التغلب على الثابت الراسخ وهم الاكثرون وتذكرت أسباب رسوخ بعض العادات ومنها وفرة فوائدها في أوقات سلفت ، وأحوال مضت ، ورأت ان الناس يرثون من السالفين كل شيء ، ولا يميلون الى التغيير حتى يميل بهم الدهر ميلة شديدة على يد حادث من الحوادث ، أو هبة شديدة من إرادة بعض الاشخاص ، وكم دكت الارادات القوية أطواداً من العادات

ربما كانت هذه السيدة تستطيع التغلب على العادة فلا تجد بأساً بأن تخطبه بنفسها لانها كانت قوية الارادة . ولكن من لها بأنه لا يرد خطبتها وهي أرملة في الاربعين من العمر ، وهو في الخامسة والعشرين يشف محياه عن ماء الفتوة ، وينشر شذى الشباب ، والمرأة مهما قويت ارادتها تذكر

الخيبة فيغلب احجامها اقدامها وهذا بعض أسباب العادة في أن تكون هي المخطوبة

ما أصعب الخواطر على المرأة التي تجد ضالتها من السعادة ولا تستطيع الاقدام على تحصيلها؟ هي صعبة على الرجل أيضا ولكنها على المرأة أصعب لانها أضعف على كل حال . بيد ان ضعفها الذي زينها الله به في عين الرجل به ثمت نعمتها وعظمت كرامتها لديه . فقوة الخفر والحياء من ضعفها ، وذلك أعظم حلية طبيعية تزدان بها ومن عطل من هذه الحلية منهن رغب عنها الكرام من الرجال . وشدة الرحمة من ضعفها وما أعلى وأجل وأزين هذا الضعف الذي يدونه تحت المرأة . والجبن من ضعفها ولولاه لما حصل الاعتدال في اقتسام الاعمال بينها وبين الرجل

فماذا تصنع قوة ارادة السيدة « خديجة » أمام شدة خفرها وحيائها ، وماذا تنفع شجاعتها أمام خشيتها من الخيبة ، وماذا تجدي قوة عزيمتها وصبرها عند الزعجات من خواطر الحب الشريف الذي ملأ قلبها الطاهر بعد ان كان حبة صغيرة ألقيت فيه

اللهم رحماك قلبت القلوب من حديد ولم تقدّ من صخر ، ان نسيم الخواطر فيها يصدع ان جاءها رائحة اليأس ، ويرأب ان أتاها رائحة الرجاء ، وكذلك كانت خواطر السيدة « خديجة » صادعة ورائبة ، بيد ان رجاءها كان أغلب ، ولو كشف لها الغطاء عما يحف بها من السعادة المخبية عنها اذ ذاك لانقلب رجاؤها يقينا . ولكن انتشكل الغرائز حظها من النفوس كتب على الانسان ان يغيب عنه آتيه من السعادة والشقاء فترى منحوسا يضحك ويلعب والشقاء يساوره مما قرب بأخذه بياتاً أو بصبحه وما له

صباحاً . وترى مسعودا يتململ ويمسي ويصبح على مضاجع الحيرة والارق واجماً سادماً والسعادة من حوله مرفرفة بأجنحتها ستقف عما قريب على رأسه وتشمله ويتبارك بها بيته

فما أشد حاجة هذه السيدة السعيدة في مواقف حيرتها تلك الى هاتف يبشرها بقرب اتصال السعادة التامة بها ، وما أشد حاجتها الى من ينبئها بأنها هي الجوهرة النفيسة التي أختصت لذلك الذي ميزته العناية الازلية أكمل تمييز . ولكن ليظهر مزيد فضلها في الميل الى رب الفضائل والمكارم التي لا تبارى حجب عنها كل هاتف وحجبت عنها البشري حتى أخفت الخواطر حظها من قلبها الكريم وتمكن منه كل التمكن ذلك الحب الشريف لذلك الذي أجمعت فيما بعد قلوب الملايين التي لا تحصى على حبه

الفصل الرابع عشر

الزواج

لا بدع اذا قلب الشوق نفوس المحبين في يد الخواطر كالكرة بيد اللاعب فان قوام الكائنات بشوق ذرّاتها بعضها الى بعض وكان جديراً أن يتجلّى هذا المعنى بزيادة في غريزة خليفة الله في الارض نعني الانسان . كيلا يكون بنو آدم وحواء أنقص من الجمادات حظاً في هذا الناموس الكبير الفائدة .

فبعد أن تمكن من «خديجة» الشوق الشريف هذا التمكن أصبحت جديرة ان تتناول هدية سعادتها ، وتكشف لها الحجب عن الرحمة التي

ترعاها ، فهبط على قلبها خاطر جديد كان به الوصول الى النعمة الجديدة

خطر لها ان تبعث الى الذي سكنت مكارمه ومعاليه فؤادها رسولاً تسبر به رغبته وتستنبيء به سعدها مما ينزل على قلبه من الالهام بهذا الشأن وساقها الى هذا الخاطر قوة رجائها بالله سبحانه وحسن ظنها بأن هذا المكمل لا يرد رغبة مثلها وهي الجامعة لصنوف من المعالي يقل اجتماعها في سواها

كانت لها صديقة اسمها «نفيسة» (وهي أخت يعلى بن أمية) فقصت عليها حديثها واتمنتها على هذه الرسالة ولم يكن بالصعب أن تؤدي الصديقة هذه الامانة لانها ستتكلم كأنها صاحبة رأي تشير به حتى اذا وجدت مجالا كانت وكيلة بابداء القبول

لم تكن النسوة اذ ذاك محجبات ولم يكن ممنوعات من مكالمة الرجال فلم تكن رسول «خديجة» محتاجة الا لشيء من قوة الجنان أمام ذلك المهيب العظيم وقد أمدت من سعد مرسلتها بحظ منه

ومن يكن راعيه السعد فقل ماشئت في تيسير مايرجوه

جاءت «نفيسة» هذه ابن عبدالله وفي القبيلة الواحدة يعرف الناس بعضهم بعضاً فقالت له ما يمنعك أن تتزوج فاعتذر لها بقلة المال اللازم للقيام بشؤون العائلة قالت له فان كفيت ودعيت الى المال والجمال والكفاءة قال لها «ومن؟» قالت له «خديجة»

قالت هذه الكلمة وصمتت تنتظر ما سيبدو منه وأحدث هذا الكلام حركة في فؤاده وبأي شيء يتحدث ذلك الفؤاد الطاهر حينئذ الا بقوله : خديجة الشريفة المعروفة بالطاهرة ، هي المناسبة، هي الموافقة، هي الصالحة

اذهبي يا نفيسة فاني ساخطبها

فرجعت تحمل هذه البشرى وكانت ميمونة النقيبة في هذه الرسالة فالله يعلم كيف أجزلت السيدة خديجة كرامتها ولم تنتظر كثيراً حتى أتى خاطباً ومعه عمه حمزة فقال عمها عمرو بن أسد بن عبدالعزي « هو الفحل لايقدع أنفه » وهو مثل عربي يقال للكفؤ الذي لايرد ان خطب

ما كان هذا الخاطب الكفؤ غنياً اذ ذاك ولكنه لم يكن أيضاً معدماً فهو من آل عبد المطلب العاصرة بيوتهم بقرى الضيفان واغاثة اللهفان في هذا السبيل تذهب أموالهم ثم يخلف الله عليهم من وجوه المكاسب وأبواب المرابح بما أوتوا من الهمم والشمم ولم يكن اعتذاره ذلك اعتذار المعدمين وانما هو اعتذار المتربص أن يتوفر له مقدار أكبر . فمع قلة ماله في ذلك الحين أصدقها عشرين بكرة لان اعطاء الرجل للمرأة صداقا سنة عربية لم يكن ليحسن تركها

والزواج العربي ليس محتاجاً الى رؤساء ديانات، ولا تلاوة الرؤساء صلوات،بل هو عقد كسائر العقود المدنيـة يتوقف برضا المرأة وأوليائها ورضا الرجل ،فبخطبةٍ من الرجل وتقديمه الصداق واجابةٍ من المرأة وأوليائها تصبح المرأة زوجـة شرعية للخاطب . وهكذا أصبحت « خديجة » الطاهرة زوجة « محمد » الامين بكلمة أعلنها عمها عمرو بن أسد فما أعظمها من كلمة جمعت بين القمرين !